مجلة كلية
الدعوة الإسلامية

العدد الثالث عشر
1996

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1425 من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم 1996 أفرنجي

المنهج العلمي عند العرب

أبحاث منقودة

العامل النحوي في ميزان النقد

تراجم من الفكر الغربي

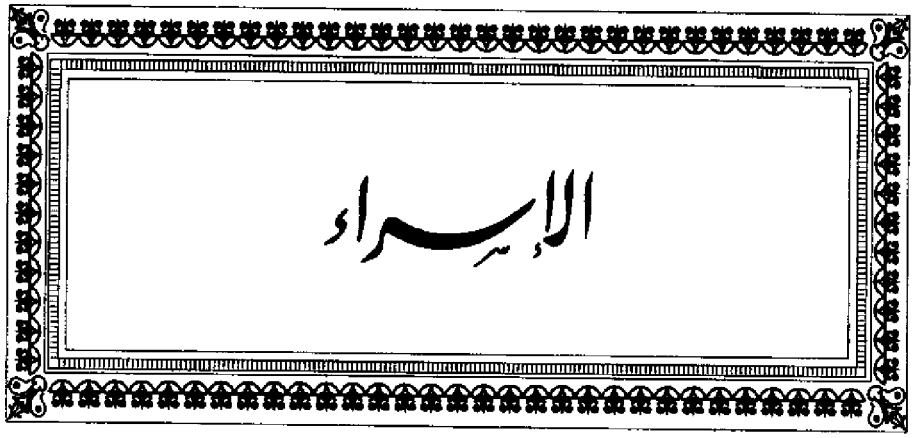

د. مسعود الوارني

تعد الألفاظ كالكائنات الحية تتدرج في سلم الوجود بمدى ما يتاح لها من إمكانيات النمو والتطور وبما يتحقق لها في شتى أبعاد الحياة من آثار، فمنها ما يدخل عالم الخلود ومنها ما يطويه الزمن فيصير إلى عالم النسيان ومنها ما يقف في مرحلة وسطى. واللفظ الذي معنا هو من بين تلك الألفاظ الذي سما في علبائه وصفا في روعة بيانه ودقة مدلوله حتى اختاره الله لمحكم بيانه فتكرر في القرآن نزوله وتصدر أول آية من سوره فأصبح علماً عليها وصار إذا ذكر من غير قرينة انصرف إليها فاكتسب بذلك بعداً جديداً تتقاصر دونه المصطلحات بما داخله من فضاء روحي وتعلق قلبي، وبما أثاره في بيئة الفكر من حوار وجدل من قضايا تتصل بالروح والجسد.

ولما كانت بعض الألفاظ قد اكتسبت في رحلتها مع الزمن ظلالاً جديدة تجاوزت تلك البدايات المبكرة للاستعمال فإن اللفظ الذي معنا وإن لم يدخل عالم الاصطلاح أو الإغراق في المجاز فلم يحرم من تلك الظلال بعد انتخابه لفظاً قرآنياً يشع نوراً وحكمة.

وبشيء من استقراء ما ورد بخصوص هذا اللفظ من معان عند علماء اللغة نجد فيه لغتين: سرى وأسرى كسقى وأسقى.

قال النابغة:

أسرت عليه من الجوزاء سارية تجزي الشمالُ عليه جامدَ البرد

وقال حسان بن ثابت:

حيِّ النضيرة ربة الخدر أسرت إليه ولم تكن تسري

فجمع بين اللغتين في البيتين. وجاء في قوله تعالى ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ بوصل الألف وقطعها وهما لغتان فصيحتان. ويقال أسرى إذا سار أول الليل وسرى إذا سار من أخره. والسُّرى سير الليل عامة وقيل بمعنى سير الليل كله.

قال لبيد:

إذا المرء أسرى ليلة ظن أنه قضى عملاً والمرء ما عاش عاملُ

وقال عبد الله بن رواحة:

عند الصباح يحمد القوم السرى وتنجلي عنهم غيابات الكرى

ولا يقال في النهار إلا سار.

وسريت سُرًى ومَسرًى وأسريتُ وسَارٍ بمعنى إذا سرتَ ليلاً ويقال سرينا سَرية واحدة والاسم السُّرية بالضم وفي المثل ذهبوا إسراء قنفذة وذلك أن القنفذ يسري ليله كله لا ينام.

وفي الحديث الشريف ما السُّرى يا جابر[1]؟ أراد ما أوجب مجيئك في هذا الوقت؟ وأسترى كأسرى.

وقال الهذلي:

وخفوا فأما الجامل الجون فاسترى بليل وأما الحي بعد فأصبحوا

وأنشد ابن الأعرابي قول كثير:

أروح وأغدو من هواك واستري وفي النفس مما قد علمت علاقم

ويقال أسراه وأسرى به مثل أخذَ الخطام وأَخَذ بالخِطام والسَّراية سُرى

(1) البخاري، صحيح البخاري، بحاشية السندي كتاب الصلاة، جـ1/ 76، ط/ دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت.

الليل. وهو من أبنية الجمع الذي جاء مصدره موافقاً للغة بني أسد الذين يؤنثون السُّرى والهُدى توهماً أنها جمع سُرية وهُدية وإلا فقلما يأتي مصدر من هذا البناء على نحو كهذا.

قال جرير في تأنيث السُّرى:

هُمُ رجعوها بعدما طالت السُّرى عواناً وردوا حمرة الكين أسودا

وقد تكرر اللفظ في أكثر من آية في القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ . . .﴾ ومعنى يسري يمضي سائراً في الظلام إذا انقضى منه جزء كثير، وقد شبه انقضاء ظلام الليل بسير السائر ليلاً وهو السرى وحذفت الياء من يسرى لأنها رأس آية. وقرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب بثبوت الياء بعد الراء في الوصل وفي الوقف على الأصل وقرأ الباقون بدون ياء وصلاً ووقفاً. وهذه الرواية يوقفها رسم المصحف بدون ياء والذين أثبتوا الياء في الوصل والوقف اعتمدوا الرواية وعدّوا رسم المصحف سنة أو اعتداداً بأن الرسم يكون بمراعاة حال الوقف.

وأما نافع وأبو جعفر فلا يوهن رسم المصحف روايتهم لأن رسم المصحف جاء على مراعاة حال الوقف ومراعاة الوقف تكثر في كيفيات الرسم.

وقد توسع أهل اللغة في استعمال هذا اللفظ فلم يعد مقصوراً على من يسري ليلاً وإنما أطلق على السحابة الممطرة ليلاً فقالوا عنها سارية وجمعها سوار ومنه قول النابغة:

سرت عليه من الجوزاء سارية تزجي الشمالُ عليه جامدَ البرد

وأطلق أيضاً على الحمر فقالوا عنها الساريات لأنها ترعى ليلاً وتنفس ولا تقر.

قال الشاعر:

رأيتك تغشى الساريات ولم تكن لتركب إلا ذا الرسوم الموقعا

كما استعير لفظ السرى للدواهي والحروب والهموم وفي ذلك أنشد ثعلب للحارث بن وعلة:

ولكنها تسري إذا نام أهلها فتأتي على ما ليس يخطر في الوهم

ومنه السرية ما بين خمسة أنفس إلى ثلاثمائة وقيل هي من الخيل نحو

أربعمائة ولامها ياء. والسرية من سرايا الجيوش وهي على وزن فعيلة بمعنى فاعلة وسميت سرية لأنها تسري ليلاً في خفية لئلا ينذر بهم العدو فيحذروا أو يمتنعوا. ويقال سَرَّى قائد الجيش سرية إلى العدو إذا جردها وبعثها إليهم وهو التسرية وفي الحديث «يرد متسريهم على قاعدهم»[2] والمتسري الذي يخرج في السرية وهي طائفة من الجيش وجمعها سرايا سموا بذلك لأنهم يكونون خلاصة العسكر وخيارهم. وأما من يرون بأنهم سموا بذلك لأنهم يخرجون سراً وخيفة فليس صحيحاً لأن لام السر راء وهذه ياء ومعنى الحديث أن أمير الجيش يبعثهم وهو خارج إلى بلاد العدو فإن غنموا شيئاً كان بينهم وبين الجيش عامة؛ لأنهم ردء لهم وفئة ومحل هذا أبواب الفقه.

ويقال فلان يساري إبل جاره إذا طرقها ليحتلبها دون إذن صاحبها.

قال الشاعر:

فـإنـي لا وأمّـك لا أسـاري لقـاح الـجار مـا سـمـر الـسـمـير

وأما ما ورد بالواو يسرو فهو بمعنى الكشف والإزالة وفي الحديث إن النبي ﷺ قال في الحساء **«إنه ليرتو فؤاد الحزين ويسرو عن فؤاد السقيم»**[3] أي يكشف عن فؤاده الألم ويزيله ويقال سروت الثوب وغيره عني سرواً وسريته إذا ألقيته عنك ونضوته. وقال ابن هرمة:

سرى ثوبَه عنك الصبا المتخايلُ وودع لـلـبـيـن الـخـلـيـط الـمـزايـلُ

أي كشف ويقال سروت عني درعي بالواو لا غير.

وفي الحديث الشريف. ماذا أمطرت يعني السحابة سرى عنه أي كشف عنه الخوف.

وقد تكرر ذكر هذه اللفظة في الحديث وبخاصة في ذكر نزول الوحي عليه ﷺ وكلها بمعنى الكشف والإزالة.

وإذا كان الإسراء خاص كما رأينا بسرى الليل فإن ما ورد في سورة

---

(2) أبو داود، سنن أبو داود، كتاب الديات، جـ4/ 181، ط/ المكتبة العصرية بيروت.

(3) أحمد بن حنبل، المسند، جـ7/ 240 ـ 243، ط2/ 1993 ـ 1414هـ، مؤسسة التاريخ العربي دار إحياء التراث العربي بيروت.

الإسراء يعد إيماء إلى أنه إسراء خارق للعادة لطول المسافة التي قطعها رسول الله ﷺ في جزء من الليل بين مبدأ السير ونهايته. وإنّ جعل الليل مع تنكيره زمناً لذلك السرى يفيد التعظيم ألا ترى كيف وردت الدلالة على التعظيم بصيغة خاصة في قوله تعالى ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ إذ وقعت ليلة القدر معرفة فكانت الصيغة الاستفهامية هي المنوهة بتعظيم تلك الليلة. إلى جانب ما في هذا الإسراء من رمز لما جاءت به شرائع التوحيد من عهد إبراهيم فقد انطلقت من المسجد الحرام ثم إلى بيت المقدس ثم إلى خاتمتها المسجد الحرام أي عادت كما عاد الإسراء إلى مكة لأن كل سرى يعقبه تأويب وبذلك حصل رد العجز على الصدر أما فيما يتصل بقصة الإسراء ذاتها أكانت بجسد رسول الله أم بروحه ﷺ في رؤية روحانية كاملة ورؤيا الأنبياء حق فالجمهور على أنها بالجسد في اليقظة سوى ما كان من نفر قالوا بروحه في المنام. والمقام هنا يقضي أن يكون الإسراء بالجسد وإلاّ لما كان لإنكار قريش وطلبهم من رسول ﷺ وصف البيت والطريق المؤدي إليه معنى. وقد اتفق الجميع بأن رسول الله ﷺ وصف لهم البيت وعيرهم وهي قافلة في طريق معين ويوم معين فوجدوا ذلك كما وصف لهم.. والله أعلم.

المراجع والمصادر

1 ـ **معاجم اللغة ومنها لسان العرب** لابن منظور لسعة مادته ودقة مدلولاته.

2 ـ **التحرير والتنوير** للشيخ محمد الطاهر بن عاشور: تفسير الآية الأولى من سورة الإسراء.

3 ـ **الجامع لأحكام القرآن** لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي: تفسير الآية الأولى من سورة الإسراء.

4 ـ **كتب الحديث**: صحيح البخاري ومسند أبي داود ومسند الإمام أحمد بن حنبل وابن ماجه.

5 ـ **السيرة النبوية** لابن هشام حدث الإسراء.